

دراسة أسلوبية للخطبة الشقشقية^١

صادق فتحي دهكردي *

هيام طعمة مطلق **

الملخص

لقد احتوت الخطبة الشقشقية على أسلوبية ممتعة فقد تضمنت القيم اللغوية وبعدها الدلالي، كما تضمنت القيم التركيبية وبعدها التركيبي، وكذلك احتوت على العلاقات المتداخلة في وحدة النص وبعدها في السياق، أو ما يطلق عليه "علم المناسبة"، وباتحاد النص وبعدها تمكنا من الوصول إلى القيم الجمالية وبعدها التأثيري بسبب جمال النص، وأسلوب الخطبة. إن هذه المقالة تتضمن دراسة أسلوبية للخطبة الشقشقية بمستوياتها الأربعة؛ وهي الصوتي، والصرفي، والتركيب، والدلالي. وذلك لأهميتها في الدراسة الأسلوبية، فالخطبة مليئة بالمحسنات البديعية، وهو ديدن أمير البيان عليه السلام في خطبه، فهي تستوقفك في كل موقف، بل في كل لفظة تجذبك نحوها لما تمتلك من القيم اللغوية والجمالية. ومن النتائج التي توصل إليها المقال إليها: الاهتمام بدور الحروف ودلالاتها، وأيضا الكشف عن المستويات اللغوية لما تحوي من جماليات عالية لاسيما في استعمال الزمن، والإحالة الضميرية، وجموع الكثرة، وكذلك وحدة النص الذي احتوى على التراكيب اللغوية العميقة المضامين، بل إن استعمال الإشارة أو التلويح في الخطبة هو أجمل ما توصل إليه البحث. والمنهج المتبع في البحث هو المنهج الأسلوبية الذي يعتمد على دراسة النصوص على المستويين اللغوي والأدبي.

الكلمات المفتاحية: الشقشقية، الأسلوبية، التحليل اللغوي، المستوى الصوتي.

١- تاريخ التسلم: ١٣٩٥/٤/٣هـ. ش؛ تاريخ القبول: ١٣٩٥/١٠/١٨هـ. ش.

Email: S.fathi.d@ut.ac.ir

❖ أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة طهران؛ فريديس فارابي (الكاتب المسؤول).

Email: hyatwalzwyny@gmail.com

❖ طالبة مرحلة الماجستير في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة طهران؛ فريديس فارابي.

المقدمة

إن أي كلام عن أفضل خطاب بعد خطاب القرآن الكريم وعن صاحبه، لا ريب وأن يتطلب من الحيطه، والحذر، والاهتمام ما لا يتطلبه غيره، ولو رجعنا إلى التاريخ مليا وجدنا أنّ المصطفى ﷺ قد أنصفه حينما قال: "ما عرفك إلا الله وأنا"، لذا لا يمكن أن ننسب خطاب نهج البلاغه إلى شخص غير أمير البيان نعني به أمير المؤمنين ﷺ؛ لتباين الناس في الطريقة ومذاهب الكلام وأساليبه، وإن كنا قد منينا النفس أن نسمي كتاب نهج البلاغه بـ(بلاغه النهج)، فستان ما بين التسميتين، فكلام النهج كله كسيكة مفرغة، لا تختلف حروفه في الطريقة والأسلوب، فهو كلام لا يصح العارف نسبه إلا لمتكلم واحد، فالإمام علي بن أبي طالب ﷺ إمام البيان، وله صدر المقام، وهو القدوة في مقام الفصاحة والبلاغه، فهو النموذج والمثل الأعلى بعد الرسول الأعظم ﷺ في التأدب وصفاء العقيدة، وأعلم الناس بأداب اللسان، وحسن التعبير في الكلام، ولم يكن الإمام ﷺ في بيانه ولغته متكلفا، أو متصنعا بل كان يصدر عن فكر عميق، وأدب جمّ، وتذوق حسن، وتعبير أصيل بليغ، وبيان لسانه متنزه عما يחדش الحياء.

لو أنعمنا النظر في طبيعة الجمل والتراكيب وكيفية جريانها على أنساق تركيبية معينة تحدّد دلالاتها ومعانيها الدقيقة، وما ينطوي خلف نظمها، وحركة عناصرها المكونة لها من مقاصد تواصلية، تأثيرية، وأسلوبية، ودلالية، فالعملية التواصلية بين الباث والمتلقي لا تقف عند حدود الكلمات المفردة، إذ لم يعد للكلمة المعينة معنى قاراً خارج حدود التركيب، وخارج حدود السياق الذي ترد فيه تلك الكلمة، لأنّ هذا التركيب الذي يجري وفقاً لسياق معين هو الذي يفجر إمكانات اللغة، ويحكم اتصالها بحقل دلالي معين دون غيره، وهذا الحقل الدلالي هو الوجود الحقيقي للكلمة - أية كلمة - فالقضية عند المبدعين وعظماء البيان اللغوي قضية لغة وعي، وليس وعي لغة، وبلغة الوعي هذه تصبح آفاق الدلالة أكثر رحابة، وتأثيراً، وفعلاً في أسماع المتلقين وضمايرهم وعقولهم، وتتفجر الكلمة عن معنى ممتد أجبرها على قوله - دون غيره - مبدع النص الذي تسليح بالفكر، والثقافة، وضروب البيان والفصاحة، وعرف أسرار اللغة التي يستعملها وسيلة للإبداع والتأثير في الآخرين، وإن كانت بعض مفرداتها جزلة فخمة في فصاحتها ممتدة في دلالاتها.

إن الأسلوبية تميز الكلام الفني من بقية مستويات الخطاب، وكذلك من سائر أصناف الفنون الإنسانية؛ لأنّها "تعنى بدراسة الخصائص اللغوية التي تنقل الكلام من مجرد وسيلة إبلاغ عادي إلى أداء تأثير فني" (السد، ١٤١٨هـ، ص ١٥)؛ أي دراسة الخصائص اللغوية للخطاب دراسة موضوعية، فالأسلوبية محور جديد في تمييز أسلوب الأديب، لأنّها تُظهر أدبية الأسلوب من خلال فرضية المستويات المتعددة، فهي لم تكن لغة علمية بحتة، كما أنّها لم تكن لغة فلسفية أو منطقية. ونستطيع القول بأنّ منهج الأسلوبية من بين المناهج اللغوية الأخرى أفضل منهج لتحليل نصّ الخطبة الشقشقية.

إنّ الخطبة الشقشقية من أبرز الخطب الوعظية، والوصفية للإمام علي ﷺ ولم تقتصر أهميتها على مستوى المضمون فحسب، بل تتعدّى إلى مستويات أخرى، فسحر موسيقى الخطبة الشقشقية بما تحمل من الطاقات الصوتية الكبيرة تتواشج مع الألفاظ، والمعاني في نسيج رائع، بل تكمن الموسيقى فيها في الألفاظ بما تحتوي من أصوات تختلف في وضوحها السمعي وقدرتها على إبراز المعنى، وتناسق الألفاظ مع الدلالات الكامنة فيها؛ فهذه الدراسة الأسلوبية تُظهر دلالات الخطاب من خلال دراسة المستويات اللغوية في الخطبة الشقشقية.

والمستويات اللغوية التي تدرس في المنهج الأسلوبية أربعة أو ستة وهي: الصوتي، الصرفي، النحوي، المعجمي، التركيبي، السياقي (عوض حيدر، ١٤١٩، ص ٣٠). وقد جاء تركيز هذه الدراسة في هذا المنهج على أربعة مستويات:

ألف) المستوى الصوتي: الكشف عن مدى تلائم أصوات الحروف الانفجارية المستخدمة في الخطبة مع الدلالات الموجودة فيها، فقد درست في هذا المستوى دلالة صفات الأصوات (الجهرو الهمس والشدة والرخاوة)، ودلالة تكرار الأصوات؛

ب) المستوى الصرفي: درست في هذا المستوى ظاهرة (زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى)، ودلالات الأفعال الماضية وجموع التكسير؛

ج) المستوى التركيبي: درست فيه أسلوب القسم والتوكيد والإحالة الضميرية؛

د) المستوى الدلالي: درست فيه الاستعارة والكناية.

أسئلة البحث

يحاول البحث الإجابة عن الأسئلة الآتية:

- ١- ما هو دور مستويات التحليل اللغوي في الخطبة؟
- ٢- لماذا استخدمت الخطبة صيغة الماضي، وابتعدت عن صيغة المضارع؟
- ٣- لماذا امتنعت الخطبة عن ذكر الترادف والجناس على الرغم من استعماله السجع بصورة مكثفة؟

فرضيات البحث

- ١- من خلال النظر في الخطبة وجدنا أنها حوت جمع المستويات؛
- ٢- تكاد تكون الخطبة مجردة من صيغ المضارعة، لأنها تريد أن تتحدث عن الوقائع التي وقعت ومضت، وذلك لإظهار آلام الإمام عليه السلام المكنونة؛
- ٣- إنَّ الامتناع عن بعض المحسنات البديعية بسبب إعطاء الإمام لكل لفظة حقها، فهي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمعنى، فالعاني عنده تتسلسل بعضها من بعض في سياق وثيق.

خلفية البحث

تعدّ الخطابة في الأدب العربي من أهم فنون الأدب، وتتمثل خطب الإمام علي عليه السلام مرحلة من مراحل تطوّر هذا اللون الفني في الأدب العربي، لذلك اهتمّ الباحثون والدارسون في البلدان العربية والجمهورية الإسلامية الإيرانية بخطب الإمام عليه السلام، وأمّا الدراسة الأسلوبية لخطب الإمام عليه السلام يبدو أنها لم تدرس بشكل مكثّف، لذا لم نجد دراسة أسلوبية للخطبة الشقشقية سوى دراسة واحدة، وهي للباحث حسين محسني (الخطبة الشقشقية تحليل لغوي أسلوبية)، حيث تطرّق إلى نظرية الحقول الدلالية، والألفاظ الدالة على حقل دلالي واحد، والألفاظ الدالة على الزمن والطبيعة والحيوانات التي ذكرت في الخطبة، وكذلك تطرّق إلى دراسة الجمل في النص. والفرق بين دراسة حسين محسني، وبين دراستنا واضح، فقد عالج محسني الوحدات المعجمية حسب حقولها الدلالية، واهتمّ بميزات الجمل ومستوى الخطاب في الخطبة، أي إنّه درس المستوى المعجمي، وأمّا دراستنا للخطبة فقد عالجت المستويات الأربعة (الصوتي، الصرفي، التركيبي، الدلالي)، وابتعدنا عن دراسة المستوى المعجمي لكونه مدرّوساً سابقاً. وجدير بالذكر أن هناك رسالة ماجستير تحت عنوان "بلاغة تقديم المفعول في نهج البلاغة" والتي كتبها زهرا رنج دوست و هناك أيضاً مقال يعنون بـ "الانزياح التركيبي (التقديم والتأخير) في خطب نهج البلاغة" للمؤلفين بختيار مجاز، سردار أصلاني ونصرالله شامللي والذي

طبع في مجلة اللغة العربية و آدابها بجامعة طهران فرديس فارابي حيث تطرق المؤلفون إلى موضوع واحد من مواضيع الأسلوبية وهو التأخير والتقديم وهو الموضوع الذي لم نتطرق إليه في بحثنا هذا.

الخطبة الشقشقية

قال عليه السلام: "أما والله لقد تَمَصَّصَهَا (فلان) ابن أبي قحافة، وإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّيَّ مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَى، يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ، وَلَا يَرْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ، فَسَدَلْتُ ذَوْتَهَا ثَوْبًا، وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحًا، وَطَفَقْتُ أَرْثَمِي بَيْنَ أَنْ أُصُولَ بَيْدِ جَدَاءٍ، أَوْ أُصْبِرَ عَلَى طِيْحَةِ عَمِيَاءٍ، يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ، وَيَشِيْبُ فِيهَا الصَّغِيرُ، وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤَمِّنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ، فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْسَى، فَصَبْرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَدَى، وَفِي الْحَلْقِ شَجَا، أَرَى ثَرَاتِي تَهْبًا، حَتَّى مَضَى الْأَوَّلُ لِسَيِّلِهِ فَأَدَلَّنِي بِهَا إِلَى ابْنِ الْخَطَّابِ (فلان) بَعْدَهُ، ثُمَّ تَمَثَّلَ بِقَوْلِ الْأَعْمَشِيِّ:

شَتَّانَ مَا يَوْمِي عَلَى كُورِهَا وَيَوْمَ حَيَّانَ أَخِي جَابِرِ

فِيَا عَجَبًا بَيْنَا هُوَ يَسْتَقِيلُهَا فِي حَيَاتِهِ، إِذْ عَقَدَهَا لِأَخْرَ بَعْدَ وَفَاتِهِ لَشَدَّ مَا تَشَطَّرَا ضَرَعَيْهَا، فَصَيَّرَهَا فِي حَوْزَةِ حَشْنَاءَ يَغْلُظُ كَلْمَهَا، وَيَحْشُنُ مَسُهَا، وَيَكْثُرُ الْعَارُ فِيهَا، وَالْإِعْتِدَارُ مِنْهَا، فَصَاحِبُهَا كِرَاكِبُ الصَّعْبَةِ، إِنْ أَشْنَقَ لَهَا حَرَمَ، وَإِنْ أَسْلَسَ لَهَا تَقَحَّمْ، فَمُنِي النَّاسُ لَعَمْرُ اللَّهِ بِخَبْطِ وَشِمَاسِ، وَتَلَوْنَ وَاعْتِرَاضِ، فَصَبْرْتُ عَلَى طُولِ الْمُدَّةِ وَشِدَّةِ الْمِحْنَةِ، حَتَّى إِذَا مَضَى لِسَيِّلِهِ جَعَلَهَا فِي جَمَاعَةِ زَعَمَ آتِي أَحَدُهُمْ فَيَاللَّهِ وَلِلشُّورَى مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِي مَعَ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ حَتَّى صِرْتُ أَقْرَنُ إِلَى هَذِهِ النَّظَائِرِ، لِكَيْتِي أَسْفَفْتُ إِذْ أَسْفَوْا وَطَرْتُ إِذْ طَارُوا، فَصَعَى رَجُلٌ مِنْهُمْ لِضِعْفِهِ وَمَالَ الْآخَرُ لِبَهْرِهِ، مَعَ هُنْ وَهَنْ إِلَى أَنْ قَامَ ثَالِثُ الْقَوْمِ نَافِحًا حِضْنِيهِ بَيْنَ تَحْيِيلِهِ وَمُعْتَلِفِهِ. وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضُمُونَ مَالَ اللَّهِ خَضْمَةَ الْإِبِلِ نَبْتَةَ الرَّبِيعِ، إِلَى أَنْ اتَّكَتْ فُتْلُهُ، وَأَجْهَزَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ، وَكَبَّتْ بِهِ بَطْنَتُهُ، فَمَا رَاعِي إِلَّا وَالنَّاسُ كَعْرِفِ الصَّبِيعِ إِلَيَّ يَتَنَالُونَ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، حَتَّى لَقَدْ وَطِئَ الْحَسَنَانِ، وَشَقَّ عِطْفَائِي، مُجْتَمِعِينَ حَوْلِي كَرِيضَةِ الْعَنَمِ فَلَمَّا نَهَضْتُ بِالْأَمْرِ، نَكَّتْ طَائِفَةٌ وَمَرَقَتْ أُخْرَى، وَقَسَطَ آخَرُونَ، كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا كَلَامَ اللَّهِ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿تَلْكَ الدَّارُ الْأَخْرَى نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فِسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، بَلَى وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعُوهَا وَوَعَوْهَا، وَلَكِنَّهُمْ حَلَيْتِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِهِمْ وَرَاقَهُمْ زَبْرُجَهَا. أَمَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسْمَةَ لَوْلَا حُضُورُ الْحَاضِرِ، وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ، وَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَنْ لَا يَقَارُوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ وَلَا سَعْبِ مَظْلُومٍ، لِأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا، وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَاسِ أَوْلِيهَا، وَلَأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَطْفَةِ عَنزٍ" (عبده، ١٤٢٧هـ، ص ٣٠).

في بادئ ذي بدء نتحدث بإيجاز عن الخطبة، وإثبات وجودها، وانتسابها إلى أمير البلاغة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فلا يمكن مطلقاً بعقلية المتبحر أن تكون هذه الخطبة التي أبعادها وانعكاساتها تنبئ فعلاً عن موقف الإمام علي عليه السلام السلمي السياسي مما حصل وقتها أن تنسب الخطبة لغيره مع أن الحقائق التي ذكرها الإمام علي عليه السلام بصعوبة الصياغة بالمفهوم الذي أورده على كل متمكن من الكلمات وبلاغتها بما يقرب من المفهوم الذي أراد إيصاله كفكرة يخلدها التاريخ له كموقف، فالاستنتاجات المبنية على الحب والكره مثلا تقف هنا عاجزة أمام الحجج التي أوردها الإمام بخطبته التي شقشق فيها حقه في الخلافة دون أن يلوح بالجيوش والسيوف وبتبولته المعروفة عند الجميع، فبلاغة الخطبة تؤكد على انتسابها للإمام علي عليه السلام قلباً وقالباً مؤطراً بموهبته الفريدة في التعبير عن مكوناته.

إن الذي يشكك في الخطبة، ويعزوها إلى السيد الشريف الرضي، فهو واهم، فقد ذكر الشيخ الأميني مصادرهما من أهل السنة، فقد رووها قبل ولادة السيد الشريف، حيث يقول الشيخ الأميني في كتابه الغدير: "هذه الخطبة تسمى بالشقشقية، وقد كثر الكلام حولها، فأثبتها مهرة الفن من الفريقين، ورأوها من خطب مولانا أمير المؤمنين الثابتة التي لا مغمز فيها، فلا يُسمع إذن قول الجاهل بأنها من كلام الشريف الرضي، وقد رواها غير واحد في القرون الأولى قبل أن تنعقد للرضي نطفته، كما جاءت بإسناد معاصريه والمتأخرين عنه من غير طريقه، وإليك عدداً من تلك المصادر عن طرق أهل السنة:

أ- الحافظ يحيى بن عبد الحميد الحماني، المتوفى ٢٢٨، كما في طريق الجلودي في العلل والمعاني.

ب - أبو علي الجبائي شيخ المعتزلة، المتوفى ٣٠٣، كما في الفرقة الناجية للشيخ إبراهيم القطيفي، والبحار للعلامة المجلسي ٨: ١٦١.
 ج - وجدت بخط قديم عليه كتابة الوزير أبي الحسن علي بن الفرات، المتوفى ٣١٢، كما في شرح ابن ميثم.
 د - أبو القاسم البلخي أحد مشايخ المعتزلة، المتوفى ٣١٧، كما في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١: ٦٩٠ (الأميني، ١٤٠٧ق، ج ٧، ص ٨٢).
 وبعد دراسة مستفيضة للخطبة، والوغل في طياتها نجد الخطبة تملؤها اللطافة، والغربة فيها ابتداءً من اسمها، فقد سميت بالشقشقية، والشقشقة بالكسر، شيء كالرية يخرج البعير من فيه إذا هاج (ابن منظور، ١٤٠٢ق، ج ١، ص ١٨٥). وربما سميت الخطبة الشقشقية بهذه التسمية، لأنها متضمنة لذكر الشقشقة حيث قال الإمام عليه السلام لابن عباس: "تلك شقشقة هدرت ثم قرت". ولها تسمية أخرى تسمى بالمقمصة، لاشتمالها على لفظ التقمص الوارد في أولها "لقد تقمصها ابن أبي قحافة".

وحدة النص

إن وحدة النص من سمات الخطبة الناجحة، فالنص في الخطبة الشقشقية بوصفه كتلة لغوية محكمة البناء والنسج يعتره تفاعل الوحدات النصية فيه من حيث صدورها وكونيتها، نستطيع تحديد الجوانب المحورية التي تتفاعل في الوحدات النصية، وكيفية ترابط هذه الوحدات وتعالقها المنطقي لاسيما وأن صاحب النص يكون قد وضع في ذهنه إطاراً محدداً يدير كلامه فيه، وتراكيب الخطبة محكمة لا يشوبها لبس، ولا غموض، فهي جزلة فخمة فصيحة ممتدة الدلالة.

إن في وحدة النص يكون الانسجام الدلالي الداخلي السياقي، وهو انسجام العلاقات الترابطية ذات البعد الأفقي بين وحدات النص، ونقصده به تلك العلاقات بين الجمل والعبارات الجارية على لسان أمير المؤمنين علي عليه السلام، فهذا المحور يدرس التعاقب وأثره في تكوين الوحدة والانسجام النصي، بل يعد هذا القسم هو الأشهر في الدراسات الأدبية، والقراءة القديمة، وكان يسمى بعلم المناسبة (الزركشي، ١٤٠٢ق، ج ٢، ص ٥٦). وقد عدّه الرازي وجهاً من وجوه الإعجاز البلاغي في الأدب والقرآن الكريم (الرازي، ١٤٠٦ق، ج ٣، ص ٣٥).

فلو أخذنا مثلاً كلمة (فلان)، فهي كناية عن العلم المذكر العاقل، وربما لا يكون لها معنى يؤخذ بعين الاعتبار، ولكنها حينما امتزجت مع غيرها في تركيب جارٍ في سياق معين في وحدة النص، دلّت على الاسم المكنى عنه، فلفظة فلان: كناية عن الخليفة الثاني، والإمام عليه السلام لم يذكر الاسم بلفظه، وربما استعمل أسلوب القرآن الكريم حينما يقول: "يا ليتني لم اتخذ فلانا خليلاً"، إذ يقول الإمام عليه السلام: "حتى مضى الأول لسبيله فأدلى بها إلى فلان بعده".

ولنتأمل قليلاً في كلمة (الأول)، فهو لم يذكر اسمه، لأنه ذكره في بداية الخطبة، وتكرار الاسم يعتبر معيباً عند العرب. ويبدو أن الإمام علي عليه السلام كان بعفويته الثقافية يباشر عمله الإبداعي الفوري، فيأتي النص المرتجل متماسكاً في وحدة النص مثل النص المكتوب، فهو في غاية الإتقان والإبداع، فجريان خطبه على هذا النحو الباهر في طوله وقصره هو دليل على الفعالية الخارقة لعقل مبدع موهوب هو السيد المؤكد في عالم العقول ولا يمكن أن تتوفر تلك الخصوصية لقوة النص في المخاطبة الارتجالية وفي الكتابة لشخص آخر غير الإمام علي عليه السلام، ومن أجل ذلك كان نهج البلاغة وما يزال يفتح أبواباً كثيرة للدراسة فهو أرض خصبة للدارسين، وذلك لسعة مادته وتنوع موضوعاته، وقد كثرت الدراسات في الآونة الأخيرة، وألفت الشروح المتنوعة.

مستويات التحليل اللغوي

وهو تفكيك الظاهرة اللغوية إلى عناصرها الأولية التي تتألف منها، وينقسم إلى مستويات؛ الصوتية، والصرفية، والنحوية، والدلالية.

المستوى الصوتي: هو علم الفونولوجيا الذي يعنى بالأصوات وإنتاجها في الجهاز النطقي وخصائصها الفيزيائية (فضل، ١٤٢٦ق، ص٢١٣).

وعلم الأصوات في اللغة يهتم بالجانب الصوتي فيها، ويأخذ هذا العلم على عاتقه أموراً كثيرة منها: إحصاء الأصوات اللغوية وحصرتها في أعداد وتصنيفها إلى نوعين:
أولاً: أصوات أو حروف أصلية أو وحدات صوتية يطلق عليها فونيمات، وتشمل على الأصوات الصامتة والأصوات الصائتة - الحركات، (الفونيم: يطلق على أصغر وحدة صوتية ذات أثر في الدلالة، أي إذا حلت محل غيرها مع اتحاد السياق الصوتي تغيرت الدلالة واختلف المعنى).

ثانياً: أصوات أو حروف فرعية يطلق عليها فونات، (الفون: فهو بمثابة تنوع نطقي للفونيم أو الصوت الأصلي لا يؤثر في الدلالة). وقد عرفه أهل الاختصاص بأنّ: "المستوى الصوتي هو الأثر السمعي للكلام بتصنيف أصوات اللغة، وتنوع الصوت وفق أساليب القول من أمر ونهي وتعجب واستفهام، وتعدد صفات الأصوات كالمهمس والجهر والرخاوة والصفير والتكرار" (فضل، ١٤٢٦ق، ص٢١٤)، ونستطيع من خلاله الوصول إلى الدلالة الصوتية عن طريق دراسة خصائص الحروف ومعانيها.

ألف) المستوى الصوتي في الخطبة

في دراسة المستوى الصوتي لكل نص أدبي يلزم دراسة الموسيقى الخارجية (الوزن والبحر والقافية) و الموسيقى الداخلية (التكرار، صفات الحروف، الصلات بين الأصوات وبين الكلمات ومعانيها وغيرها) بيد أننا نكتفي في بحثنا هذا بذكر البعض من ظواهر المستوى الصوتي احترازاً عن الإطالة في الكلام نظراً لحجم المقالة الذي لا يتسع التطرق إلى جميع الظواهر الأسلوبية لخطبة الشقشقية.

بداية الخطبة بحرف "أما"

ابتدأ الإمام علي عليه السلام كلامه بحرف عليه طابع الشدة، أو يُنسب إلى حروف الشدة، وهي الهمزة، فقد بدأ كلامه بقوله: "أما والله"، والهمزة من حروف الشدة (الشدة: قوة الحرف لانجباس الصوت من الجريان عند النطق به لقوة الاعتماد عليه في مخرجه، وحروفها ثمانية مجموعة في أجد قط بكت، أو أجدت طبقك) (عباس، ١٤٢٦هـ، ص٧١). ولو تتبعنا الحروف التي استخدمها الإمام في الخطبة لوجدنا أن أكثر الحروف استخداماً هي (حروف الشدة)، وهذا يعطينا طابعا عن الخطبة بأنها مليئة بالحزن، والتألم، والعتاب.

والغريب أنّ الإمام علي عليه السلام لم يبدأ كلامه ب(ألا) الاستفتاحية على الرغم من أنّهما متشابهان في الخصائص، والفرق بينهما قليل نادر، ف (أما) تأتي للحال، بينما (ألا) تأتي للاستقبال.

وكذلك (أما) تكثر قبل القسم، و(ألا) تكثر قبل النداء، ولكونها بهذا المنصب من التحقيق لا تكاد تقع الجملة بعدها إلا مصدرّة بنحو ما يتلقى به القسم (ابن هشام، ١٤١٦ق، ج١، ص١٢٣).

ويبدو أنّ الإمام عليه السلام أراد بكلامه إظهار الحال، وليس المستقبل، لذلك بدأ ب(أما)، ليكون التناغم متناسبا مع حرف الهمزة الشديد، وكذلك يستمرّ التناغم مع الحرف الثاني، وهو (الميم) المجهور، وهو حرف مجهور لكنّه متوسط الشدة والرخاوة، كذلك هو حرف يدلّ على الانجماع والانضمام، فهو يمثّل الأحداث التي يتمّ فيها التوسّع والامتداد، ويتلائم بالإيجاء بالمشاعر الإنسانية من غضب، وتألم، وبغض مع التوسّع والبعد والامتداد (عباس، ١٤٢٦ق، ص٧٣). ففي كلام الإمام عليه السلام يوجد التألم والحسرة من

القوم، وهو يريد أن يستهلّ الخطبة بتحسّره، والتعبير عمّا يتلجج في صدره من الأسى؛ وذلك استشارة الصحابة مطابقاً لما في خاصية (الهمزة والميم)، وتقريب الواقع المرير لما أصاب الأمة من هن وهنات.

تكرار حرف الألف

إن الألف من حروف المدّ، وهو حرف جهر وشدة، فتكراره يسهم في شدة الكلام، والغلظة، فالتكرار: "يسهم بما يوفّره من دفع غنائي في تقوية النبذة الخطابية، وتمكين الحركات الإيقاعية من الوصول إلى مراحل الانفراج بعد لحظات التوتر القصوى" (شرتج، ١٤٣١هـ، ص ١٠). إن هذا التكرار له إيقاع في النفوس منسجم مع الحالة النفسية للإمام عليه السلام، فهو يريد تنبيه الأمة، وإيقاضها من غفلتها، فقد بلغ الإمام عليه السلام ذروة الإيقاع الصوتي في كلماته (لَأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا، وَكَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوْلِيهَا)، فقد أجاد الإمام عليه السلام في توظيف الألف الموحى للحسرة، وعدم الاكتران بأمر الخلافة، فالألف جاءت بنغمة حزينة تبعث على الأسى، ويبدو أنّ الإمام عليه السلام قالها بصوت شجي، لذا جاء كلامه متناغماً مع الجميع، ومتناسقاً بحروفه، ومبدعاً بإيقاعه، وهذه سمة الخطيب الناجح.

السجع

لاتكاد تخلو خطبة من خطب الإمام علي عليه السلام من السجع، فالسجع عند الإمام عليه السلام أمر مهم حتى نُعت به، فقد قال ابن زياد للسيدة زينب عليها السلام: "لعمري لقد كان أبوك شاعراً سجعاً" (الاسفرايني، ١٤٠٥ق، ص ٥٦). والسجع يعتبر من العناصر المهمة والبناءة في بلاغة خطب الإمام عليه السلام، فهو يأتي بالسجع ملائماً لسياق الكلام، والموقف الذي يخطب فيه، والسجع أسلوبٌ رائع استعمله القرآن الكريم في أغلب آياته.

ومن الغريب أنّ بعض أهل الاختصاص يرفض خطب الإمام عليه السلام لوجود السجع فيه، بل اعتبره منافياً للبلاغة، لذلك أورد ابن أبي الحديد قولاً لأصحاب علم البيان أنّ قوماً عابوا السجع وأدخلوا خطب أمير المؤمنين عليه السلام في جملة ما عابوه لأنّه يقصد فيها السجع وقالوا إنّ الخطب الخالية من السجع والقرائن والفواصل هي خطب العرب، وهي المستحسنة الخالية من التكلف.

وقد ردّ قولهم ابن أبي الحديد بقوله: "إنّ السجع يدلّ على التكلف فإنّ المذموم هو التكلف الذي تظهر سماجته وثقله للسامعين فأما التكلف المستحسن فأى عيب فيه؟ ألا ترى أنّ الشعر نفسه لا بدّ فيه من تكلف لإقامة الوزن وليس لطاعن أن يطعن فيه بذلك" (ابن أبي الحديد، ١٤٠٢ق، ج ١، ص ٢٦).

يأتي الإمام عليه السلام بكلام مسجوع في خطبته الشقشقية حيث يقول: "فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْبًا، وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحًا"، "وَطَفِقْتُ أُرْتَمِي بَيْنَ أَنْ أُصُولَ يَدٍ جَدَاءٍ، أَوْ أُصْبِرَ عَلَى طِخْيَةِ عَمِيَاءٍ"، "يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ، وَيَشْيِبُ فِيهَا الصَّغِيرُ"، "فَصَبَّرَهَا فِي حَوْزَةِ خَشْنَاءٍ يَغْلُظُ كَلْمُهَا، وَيَخْشَنُ مَسُّهَا، وَيَكْتُرُ الْغَارُ فِيهَا، وَالْأَعْتَادُ مِنْهَا"، "فَصَاحِبُهَا كِرَاكِبِ الصَّعْبَةِ، إِنَّ أَسْنَقَ لَهَا حَرَمَ، وَإِنْ أَسْلَسَ لَهَا تَقَحَّمَ"، "لَوْلَا حُضُورُ الْحَاضِرِ، وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بُوْجُودِ النَّاصِرِ"، "وَمَا أَحَدٌ اللَّهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَنْ لَا يُقَارُوا عَلَى كِظَةِ ظَالِمٍ وَلَا سَعْبِ مَظْلُومٍ"، "لَأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا، وَكَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوْلِيهَا" (عبده، ١٤٢٧ق، ص ٣٠).

لقد اتّسمت هذه المقطوعات اللطيفة بالسجع المحكم الأداء، فكأنّ كل جملة في صيغتها المجزوءة المختصرة شطر بيت متشابه الوزن والروي، فكلماته مليئة بأنواع التنميق اللفظي والتلوين الصوتي، والدلالي بين عبارات الفقرات، مما يجعل الخطبة الشقشقية محكمةً إحكاماً دقيقاً.

تستند خطب الإمام عليه السلام إلى السجع تارة، وإلى الازدواج تارة ثانية، وإلى المزج بينهما تارة ثالثة، وقد نجد شيئاً مغايراً لا ينتمي إلى السجع أو الازدواج وذلك من خلال توظيف دقيق للإيحاء الصوتي للمفردات أو تنسيق الجمل في لون من الانسجام الموسيقي بين مقاطع صوتية قد تتعادل وقد تتجانس، وقد نراه يرسل القول إرسالاً دون استناد إلى محسن بديعي لفظياً كان أو معنوياً. وإذا كان الإمام علي عليه السلام لا يعتمد الأسجاع إلا في مواضعها، فإن الخطبة لها نغمة خاصة، تسلك عبرها إلى نفس السامع، تتصافر فيها صيغ اللفظ والعبارة وتآلف الحروف فأداؤه هو الأداء المحك المثلث الذي تفد فيه اللفظة بنوع من الخلق والاشتقاق الخاص بها وبلاغة الأداء ونغميته لا تتحولان في خطبة إلى غاية بذاتها في نوع من الصنعة البديعة أو ما إلى ذلك، بل إن النغم يتآلف مع اللفظة ومعناها جميعاً، بنوع من الوحدة الحية المتكاملة التي لا يحقد البحث بسرهما (في رحاب نهج البلاغة، ١٤٢٥ق، www.arabic.balaghah.net).

ويبدو أنّ الخطبة خالية من الترادف؛ لأنّ الإمام يُعطي لكل لفظة حقّها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمعنى، فالمعاني عنده تتسلسل بعضها من بعض في سياق وثيق، والألفاظ عنده تنبث عبر نغم أو وزن ذاتي مضمّر مما يدع فيها إيقاعاً شبيهاً بإيقاع الشعر، بل إنك تلمس فيه لطافة البلاغة والتنغيم، فهو يضع حروف الشدة الانفجارية في بداية خطبته، ليُشعرك بعدم الرضى بخلافة القوم. وإذا أقمنا موازنة لهذه الخطبة الرائعة في ميزان النثر الصافي، والمتزن يبدو أنّها تفوق النثر، فلم تقتصر غاية الخطيب المبدع فيها على الإيضاح بل تعدّته إلى الإيجاد والتأثير وبدلاً من أن يقول يقضون مال الله، قال: (يَخْضُمُونَ مَالَ اللَّهِ)، والعبارة الثانية أوقع في النفس جرساً، فشتان ما بين القضم والخضم.

إنّ السجع المتكرّر في خطب الإمام عليه السلام له جرس خاص، ونغمة متميّزة يمتاز بها أمير البيان عليه السلام لما يجمعها البناء الواحد المترابط، لذلك يقول أحمد المبارك: "والكلمات التي تكون على بنية واحدة تجمعها رابطة الجرس والنغمة وتميزها في الكلام المسموع من غيرها من الألفاظ كما تجمعها أو تكاد رابطة التناظر التزييني في الكلام المكتوب وإن كانت الأولى أوضح وأقوى لذلك كانت أبنية الألفاظ وأوزان الكلم العربي وحدات موسيقية ترجح إليها جميع ألفاظ اللغة العربية وكان الكلام في حال تركيبه سواء أكان شعراً أم نثراً مجموعة من التراكيب والوحدات الموسيقية، إذا أحكم تركيبها وتولتها يد صناع وحس مرهف وفكر نافذ كانت إلى جانب أدائها للمعنى قطعة فنية موسيقية تسابق المعنى إلى القلب عن طريق الحس والسمع حتى إن الكلام العربي ليبدو كأنه زخارف الفن العربي في صورته المتناظرة والمتكررة والمتشابهة والمختلفة وهذا هو سر موسيقية اللغة العربية وجمال إيقاعاتها وحلاوة نغماتها ولاسيما إذا وقع صانع الكلام على أنواع موفقة من التأليف والمزوجة بين الألفاظ" (المبارك، ١٣٢٨ق، ص ١٢٥).

ويبدو أنّ الإمام عليه السلام قد ترك الجناس في هذه الخطبة على الرغم من أنّه لم يترك خطبة إلاّ وعصدها بجناس تام، بل إنّ أغلب خطبه تمتاز بالجناس الناقص، ونحن نعلم أنّ الجناس من أكثر ألوان البديع موسيقياً، وهو ينبع من ترديد الأصوات المتماثلة التي تقوّي رنين اللفظ وتوجد جرساً موسيقياً، فهو ضرب من ضروب التكرار يقيد تقوية نغمة الألفاظ، فضلاً عن أنّ الدعامة القويّة لتأكيد المعنى وتشبيته.

والجناس يعتبر من أقوى العوامل في إحداث الانسجام لما فيه من عاملي التشابه في الوزن والصوت، فسرّ قوّة الجناس يكمن في أنّه يقرب بين مدلول اللفظ وصوته من جهة، وبين الوزن الموضوع فيه اللفظ من جهة أخرى.

ومن الأساليب البلاغية التي استعملها الإمام عليه السلام في الخطبة الشقشيّة هو أسلوب الطباق، وهو أسلوب يحقّق بنية إيقاعية يطلق عليها الإيقاع التقابلي، نحو: "يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ، وَيَشْيِبُ فِيهَا الصَّغِيرُ"، فضلاً عمّا يتركه الطباق من أثر في تأكيد المعنى وإيضاحه.

ب) المستوى الصرفي

هو علم المورفولوجيا يتناول البنية التي تمثلها الصيغ والمقاطع والعناصر الصوتي التي تؤدي معاني صرفية، أو نحوية، ويعنى بدراسة الوحدات الصرفية (المورفيمات) دون أن يتطرق إلى مسائل التركيب النحوي، ويدرس المستوى الصرفي الصيغ الصرفية، واحتمال الكلمة الواحدة وجوها للمعاني مثل الإتيان بالمصدر الميمي واحتماله معاني اسم الزمان والمكان، وتغيير المعنى للكلمة باختلاف كمية حروفها اعتماداً على قاعدة "زيادة في المبنى تدل على زيادة في المعنى" (عتيق، ١٣٩٥ق، ص ١٠).

المستوى الصرفي في الخطبة

من الأسس العامة في اللغة ظاهرة "زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى"، فقد تذوقها اللغويون الأوائل في جمعهم لكلام العرب، وفسرها بعض المنظرين من بعدهم بتفسيرات لا تزال محتاجة إلى ضبط مواردها، وحصر صورها؛ لأن كثيراً مما لا يدخل تحت هذا الأساس، قد يعد - وهماً - منها، ولذا يحتاج الأمر إلى نظرية ترصد الصور المتعددة والمختلفة، ثم تبني القواعد المتحكمة في إدخال وإخراج غيره.

فظاهرة "زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى" لها دلالات ربما نلاحظها في كلمات أمير المؤمنين عليه السلام، فنجد أنه يأتي بلفظة (تقمصها)، فقد جاء بزيادة حرف التاء، وكذلك لفظة (يستقيها)، وهي لفظة قد أضيف لها حرفان من حروف الزيادة العشرة المعروفة (سألتمونيها)، وهما (التاء والسين)؛ وذلك للدلالة على مبالغة الكلام الذي قاله الخليفة الأول حينما قال: (أقيلوني)، فتكرار الزيادة يقتضي زيادة في المعنى: "إن المبالغة هي زيادة في المعنى تقتضي زيادة في بناء اللفظ" (ابن جنّي، ١٤٠٩، ج ٣، ص ٢٦٦).

إن ورود الجموع في الخطبة يعطي دلالات نلاحظها، بل هي واضحة، فالإمام عليه السلام يستعمل جمع التكسير، فهو في غاية الأهمية، والعجيب أن بعض أهل العربية قلل من قيمة جمع التكسير، فمنهم من كان "ينادي بحذف باب جمع التكسير من الصرف؛ إذ لا يرى فيه فائدة لدرس الجملة غير أن الدرس الصرفي لجمع التكسير مهم جداً" (خليفة، ١٤١٧ق، ج ٥، ص ٤٦).

استخدم الإمام عليه السلام جموع الكثرة في (نظائر، العلماء)، وربما وظف الإمام عليه السلام جموع الكثرة لانسجامها بدلالاتها على كثرة المصائب، والويلات التي لاقاها من هؤلاء النفر المتطاولين على حق الله تعالى، ورسوله، ووليّه، وكذلك استخدم الإمام عليه السلام جمع القلة لأظهار قلة الناصر والمعين، وقلة المتعطين بكلامه، ولو أنعمنا النظر في الجمل الواردة في الخطبة سوف نشاهد سيطرة الجمل الماضية على الخطبة سيطرة تامة، إذ يبلغ عدد الجمل التي وردت بصيغة الماضي خمسين جملة، في حالة تعدد الخطبة الجمل المضارعة تقريباً، إلا بعض الجملات التي وقعت حالاً في "وإنه ليعلم" و"قام معه بنو أبيه يخضمون" أو صفة كما في "طخية عمياء يهرم فيها الكبير وبشيب فيها الصغير ويكدح فيها مؤمن" و"حوزة خسناء يعلظ كلمها ويخشن مسها".

فالخطبة تكاد تكون مجردة من الدلالة المضارعة، فهي تريد أن تتحدث عن الوقائع التي وقعت ومضت؛ وذلك لإظهار آلامه المكنونة ولا يقصد منها موعظة أو اجتهاد دون الوصول إلى أي تغيير، وكيفية معاملة القوم بعد الإمام مع الحسنين عليه السلام تدل على عدم اتعاضهم من الحوادث التي جرت في عهد أمير المؤمنين عليه السلام، والدليل الآخر على هذا القول عدم أجابته عليه السلام دعوة ابن عباس إلى إطراد الخطبة.

ج) المستوى التركيبي

وهو المستوى الذي يُقصد به مراعاة الجانب النحوي أو الوظيفة النحوية لكل كلمة داخل الجملة. و"المستوى التركيبي يدرس تأليف وتراكيب الجمل وطرق تكوينها وخصائصها اللغوية" (فضل، ١٤٢٦ق، ص ٢١٤).

وقد عرفه الدكتور فريد عوض في كتابه *علم الدلالة دراسة نظرية تعريفية* واضحا مبسّطا حيث يقول: "هو استنباط المعاني العامة للجمل والأساليب الدالة على الخبر أو الإنشاء والإثبات أو النفي والتأكيد والطلب كالأستفهام والأمر والنهي والعرض والتخفيف والتمني والترجي والنداء باستخدام الأدوات الدالة على هذه الأساليب" (حيدر، ١٤٢٦ق، ص٤٣). وهنا يمكن أن يأتي دور الأسلوبية النحوية في دراسة العلاقات والترابط والانسجام الداخلي في النص وتماسكه عن طريق الروابط التركيبية المختلفة.

إنّ بنية اللغة لا تكفي بمجرد صياغة المفردات وفق القواعد الصرفية، بل تحتاج إلى وظائف معينة تسمى: "الوظيفة النحوية" وهي التي تحتل الكلمات فيها مواقع معينة تشير إليها علامات معينة نسميها علامات الإعراب في العربية والتي تدل على نوع العلاقة الوظيفية والدلالية التي تربط بين الكلمات أو المفردات داخل التركيب، فمثلا: ضرب موسى عيسى، وضرب عيسى موسى، بينهما اختلاف مرده إلى اختلاف الرتبة، فالموقع أو الرتبة يصبح ذا محتوى دلالي؛ لأنه لا تظهر عليه علامات إعراب فهي أسماء مقصورة.

والموقع هو ذاته وظيفة؛ فاعل، ومفعول به، وتمييز، وصفة، فهو إشارة (الموقع) إلى وظائف، والوظائف هي علاقات دلالية تربط الكلمات بعضها ببعض في الكلام أو وسط الكلام، وتزيد هذه العلاقات الدلالية تحديداً بالعلامات الإعرابية التي هي مؤشرات إضافية، وبالتالي تزيد في بيان نوع العلاقة النحوية والوظيفية والدلالية.

المستوى التركيبي في الخطبة

لو تأملنا الخطبة مجدداً لوجدنا أنّ الإمام عليه السلام ابتدأ كلامه بأداة التنبيه (أما والله) أو الاستفتاحية، وكذلك ورود القسم معزّزا بتوكيدات اللام وإنّ (أما والله لقد ... ليعلم أتي)، وهذا الأسلوب يُشعر بوجود أجواء مليئة بالترديد والإنكار بين المتقمصين الخلافة من جهة، وعموم الناس من جهة أخرى والصلة الوثيقة بين جهل الأفراد بالنسبة إلى شيء ما وإنكار ذلك الشيء أمر بديهي وطبيعي؛ لأننا نعلم أنّ أسلوب التوكيد، والإكثار من التوكيدات تشير إلى الإنكار من قبل الطرف المخاطب.

وهناك أسلوب آخر استعمله الإمام عليه السلام، وهو أسلوب الإحالة الضميرية، فقد كرّر في خطبته الشكشيّة الإحالة الضميرية، وهذا الاستعمال أو الإحالة نوع من الاستعمالات اللغوية، وهو عدم ذكر الشيء بلفظه، وإنّما يذكر على هيئة ضمير بعائد أو غير عائد، فالإحالة الضميرية في هذه الخطبة قد استحوت على تراكيبها من أول جملة فيها، وتوزّعت على أنواع الضمائر المعهودة في العربية كلها تقريباً، إلا أنّ بعضها متكاثر في النص بصورة أكثر بروزاً وتكراراً من غيرها، ومنها: الضمير الوجودي، ونعني به ضمير المتكلم العائد إلى الإمام عليه السلام، وضمير المفردة الغائبة، وضمير المفرد الغائب، فهو يقول:

"مضى لسبيله / يستقبلها / عقدها / بعد وفاته / في حياته / محلي / ينحدر (عني) السيل / لا يرقى (إلي) الطير / طويت عنه كشحاً / سدت / طفت / فرأيت / وصبرت / ثرائي".

تعمل هذه الضمائر الإحالية على تماسك النص وتحكم الروابط بين شخوصه وأحداثه وإن كانت متضادة ومتناقضة، وأن تضفي على النص سمة الإيجاز الذي امتدت دلالاته واتسعت، وعدم ذكر الأشياء والأسماء بألفاظها الصريحة يعني التحقير لها أحياناً؛ لكونها لا تستحق أن تذكر، ولو عدنا إلى بعض الكلمات، وهي: "تقمّصها / الخلافة / سدت عنها / طويت عنها / أدلى بها / يستقبلها / عقدها / صيرها / ضرعيها".

وهذه الإحالات الضميرية تلمح إلى غائب قريب، أو بعيد؛ لأنه لا يستحق الذكر بلفظه، أو الإحالة إليه، لكونه مشهوداً معهوداً في الأذهان، مكتسباً وجوده عند المتلقين، وقد عملت هذه الضمائر على تنوع الحوار الداخلي للنص، وإبراز أبعاد

المونولوج، وتحديد أوجه الصراع، وتضارب القوى، وتباين الرؤى والمفاهيم، وأشياء الحال، وشخصه، وشخصياته، وامتداد انسياق النص وتسلسله.

إن الخلافة وقد أعرض الإمام عليه السلام عن ذكرها بلفظها، بل كنى عنها بضمير غائب تقليلاً من شأنها عنده، فهو صاحب آخرة لا دنيا قد صارت مستدخلة في أذهان المتلقين، فاستعمل إحالة قبلية أخرى مستبدلاً للضمير باسم الإشارة، والإشارة أبعد في الدلالة من الضمير، ولكي يحكم القول في أذهان المخاطبين جاء باسم الإشارة مسبقاً بهاء التنبيه للدلالة على القريب، ولم يلحقها بحرف الخطاب (الكاف) إمعاناً في استقباح أمرها، يقول: "فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْبَى فَصَبِرْتُ".

إننا بحاجة إلى دراسة الخطبة دراسة شاملة، وأهمها الدراسة الاجتماعية، ثم الانتقال إلى الأساليب الإبداعية؛ لأن دراسة نص إبداعي كالخطبة الشقشقية في معزل عن سياقاته التداولية النفسية والاجتماعية ظلم بحق النص نفسه، ومبدعه، فالنص ليس بنية لغوية مجردة، بل هو بنية لغوية مقامية، تواصلية، فتداعي الكلمة في النص الإبداعي لا يمكن أن يتم بمعزل عن السياق الذي تتخذه الكلمة من هذا السياق.

إنّ شعرية التوكيد، وشعرية الحذف في الأسلوب التركيبي، وما يكتنزان من قوة كامنة في التلميح والإشارة ما يضيفان من شحنة بلاغية إلى اللغة، وانزياحا عن مألوفة واعتيادية السياق، فالتوكيد زيادة لغوية إذا أحسن استخدامها أعطت قوة شعرية للنص، والحذف نقص لغوي إذا أحسن استخدامه أعطى شحنة شعرية للنص، وقد أبدع الإمام عليه السلام في إعطائه مثالا لشعرية التوكيد من الخطبة الشقشقية حيث يقول: "وَأَنَّهُ لِيَعْلَمَ أَنَّ مَحَلِّيَّ مِنْهَا مَحَلُّ الْقَطْبِ مِنَ الرَّحَى" لوجود لام التوكيد في مفردة - ليعلم - ومفردة محل المتكررة.

الاستعمال المتكرر لصيغة الغائب

إنّ استعمال الإمام عليه السلام أسلوب الحديث عن الغائب، وكذلك عدم استعمال أسلوب النداء في الخطبة له تأثير عميق في النفوس، فقد يكون السبب أنّ الحاضرين في المجلس لا قيمة لهم، أو لأنهم ليسوا أهلاً أن يخاطبهم الإمام عليه السلام ولا يذكرهم إلا في الحديث عن الدنيا المنتسبة إليهم "دنياكم هذه"، لذلك لم يُسمهم بأسمائهم، فقد سمّاهم بأسماء مبهمّة كـ "فلان" و"ثالث القوم". وربما قد يكون الإمام عليه السلام قد تجاهل الناس كأنهم غير موجودين جسماً في مجلسه كما أنهم كانوا غائبين عن عملية الدفاع عن حقّه المغصوب، وربما يكون "التجافي" عن خطاياهم وعدم مؤاخذه الحاضرين بها، وفي هذه تودد إليهم حتى يمكنهم المبادرة إلى الإنابة والرجوع إلى سبيل الحق.

وهذا الالتفات من الخطاب إلى الغيبة قد ورد في القرآن الكريم: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ (الزمر، ٥٣)، إذ ينادي العباد المسرفين ويتسبهم إلى ذاته سبحانه إعداداً للقبول وإطماعاً في النجاة (ابن عاشور، ١٣٩٣ق، ج٢٤، ص١١٢)، ثم يستفيد من الغائب في صلة الموصول، ليعبّد هذه العباد من السلبية الموجودة في جملة "أسرفوا".

وهكذا لا يخاطبهم الإمام ولا يستعمل صيغة الخطاب إلا في حديث عن الخلافة، وحبهم لها هو الذي دمر الاسلام، وهنا يوجد دليلان في اظهار المخاطب المستتر، والانتقال من صيغة الغيبة إلى المخاطب، وهما أولاً: إيجاد التقارب بين الدنيا والناس، وثانياً: بيان شدة انتساب الدنيا إلى الناس إثر تعريف الدنيا بالإضافة إلى ضمير "كم"، كما يُعبّد عليه السلام نفسه وآماله عن الدنيا بحصرها بضمير "كم" فيقول: "دنياكم هذه".

ربما يريد الإمام علي عليه السلام أن يشير إلى مضمون عميق المعنى، وهو بعده عن الخلافة الحقة التي انحرف مسارها، وأصبحت بعيدة عن منهاج الرسالة، وكذلك ربما أراد إظهار زهده في الخلافة إلا بعد قيام الحجّة بوجود الناصر وغيره، الذي نسميه "تغييب الخلافة"، فقد ورد هذا الضمير ١٥ مرة في الخطبة، دون أن يذكر له مرجع، كأنه عليه السلام يتعمد في حذف كلمتي الخلافة والحكومة عن كلامه؛ لأنه لا يطلب الدنيا ولا يحرص على الحكومة إلا لتنظيم أمور المسلمين واستقرار العدل بين الناس، كما يدل على هذا المعنى استعمال كلمة "الأمر" حينما يقول: "فلما نهضتُ بالأمر".

المستوى الدلالي

كل المستويات اللغوية السابقة (الصوتية، الصرفية، التركيبية) لا بد أن تكون حاملة للمعاني أي الدلالات، فقضية الدلالة من أقدم ما شغلت به الحضارات من قضايا ساهم في دراستها الفلاسفة، واللغويون، والبلاغيون، وعلماء الأصول من العرب وغيرهم، ويُعد البحث الدلالي محوراً من محاور علم اللغة الحديث، فهو يركّز على دور المجاز، والاستعارة، والكناية وتحليل المعاني المباشرة، وغير المباشرة للنص.

المستوى الدلالي في الخطبة

إنّ الإمام علي عليه السلام استعمل الاستعارة والكناية في خطبته الشقشقية، وكما يقال: الكناية أبلغ من التصريح، فنراه يصف الخلافة بالقميص، والثوب، وهذا استعمال في غاية الإبداع في الاستعارة والكناية حيث يقول: "تقمصها فلان" و"سدلتُ دونها ثوباً" و"شقَّ عطفائي"، وربما يريد أن يشعر الآخرين بأنّ الخلافة قميص من الله جلّ وعلا ألبسه أهله، فليس لكلّ امرئ أن يتقمصه، أو ربما يقصد الإمام عليه السلام أنّ القميص عند الإنسان أكثر شئاً احتياجاً إلى التبدل والتغيير ويندرسُ سريعاً مع مضي الزمان و لا بدّ للإنسان أن يغير قميصه بعد مدة من الزمان.

وكذلك استعمال الإمام عليه السلام الكناية في كلمة "الطير"، فبعد ما يكتفي الإمام عليه السلام بانحدار السيل عن علوِّ مقامه وعظمة شأنه، يزيد هذا العلوّ بكناية أخرى "إذ ليس كلّ مكان علا بحيث ينحدر عنه السيل وجب أن لا يرقى إليه الطير" (البحراني، ١٤٠٦ق، ج ١، ص ٤٢٦)، فهو يريد أن يقول: إنّ منزلي كالذي في السماء يستحيل أن يرقى الطير إليها.

وأغرب ما قرأنا في خطب الإمام عليه السلام كلاماً يُستعمل فيه الكناية اللاذعة، بل إنّ الإمام عليه السلام يصف في كنياته حقيقة ذلك الرجل الثالث، فقد استعمل الإمام عليه السلام الألفاظ: "نافج الحُضنين"، "الثيل" و"المعتلف"، فقد وردت هذه الكلمات في كناية واستعارة عن همّ الخليفة الثالث في الأكل والشرب كالبعير واستعداده للتوسّع بأموال المسلمين؛ لأنه نافج الحُضنين، وهذا أقوى تصوير ترسمه الخطبة عن ثالث القوم، بل أعظم كلام يرد في حقّ هذا الرجل الذي بدّل السنّة النبوية، وأعاد طريدي رسول الله ﷺ من بني عمومته.

وهناك استعارة لطيفة استخدمها الإمام عليه السلام وهي وصفه الناقة بعدة أوصاف استعمل فيها الاستعارة (كُورها، صرْعِيها؛ الصَّعْبَة، حَبَط، شِماس، نافج الحُضنين، الثيل، المعتلف)، فقد تمثّل الإمام عليه السلام بقول الشاعر ويشبه نفسه بالمسافر على "كور الناقة" مع المتاعب والمحن، يعني نصيبه عن ناقة الخلافة هو التعب وعدم الراحة، فالاستعارة في كونه على كور الناقة يعود إلى زمانه عليه السلام بعد رسول الله ﷺ، وخروج الخلافة والحكومة عن مدارها الأصلي أهم ميزات هذه الأيام (مركز دراسات الشيعة، ١٤٣٧ق، www.shiitecenter.ir).

ولفظة الكور في اللغة تعني: "مما يُذللُّ به البعير ويُوَطُّ" (ابن المنظور، ١٤٠٢ق، ج ٥، ص ١٥٥).

وكان الإمام عليه السلام يريد أن يقول: إنَّ الخلافة أصبحت ذليلاً حينما تولوها جماعة لا يستحقون بها وفقدت جلاله شأنها بعدما جعلوها تحت أقدامهم واقتسموا الانتفاع بها كإقتسام ضرع الناقة.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى ضرع الناقة والانتفاع به بصورة غير صحيحة فنصيب الأول والثاني من الناقة الانتفاع الذي لا يستحقانه، ثم استعار الإمام عليه السلام بالناقة التي ترتبط بطبيعة الخليفة وأخلاقه، فهناك ناقة صعبة بحاجة ماسة إلى مداراة أحوالها، والإمام عليه السلام هو الذي يتحمل مصاعب مصاحبة هذا الراكب ليُبعدة عن الخطرات في خلافته.

الخاتمة

إنَّ من أهمَّ ما توصل إليه البحث من النتائج والأساليب المتنوّعة في الخطبة الشقشقية:

- ١- الكشف عن أهميّة الكلمات في إلقاء المعنى بالنظر إلى المادّة والصياغة، وكذلك السجع المتكرّر في: "خرم، تفحم"، "الكبير، الصغير"، "جداء، عمياء"، وغيرها، فضلاً عن الإيقاع النفسي والاجتماعي فيها.
- ٢- الكشف عن المستويات اللغويّة لما تحوي من جماليّات عالية، وخصوصاً في استعمال الزمن، والإحالة الضميريّة، وجموع الكثرة.
- ٣- الكشف عن المستوى الصوتي في توظيف الحروف الانفجاريّة.
- ٤- المستوى الصرفي في العبارة المشهورة (زيادة في المبنى تدل على زيادة في المعنى)، وتأثيرها في المعنى اللغوي، وكذلك النفسي، والإيقاعي.
- ٥- استعمال الضمير المخاطب، يُعلن للناس عزوفه عن الخلافة، وزهده فيها، فالخلافة أدت إلى متاعب كثيرة في حياة الإمام عليه السلام والسبب الرئيس لتألّمه يعود إلى انحراف الدين عن مسيره الأصلي و خروجه عن وظيفته الأصلية في إصلاح الأمور، وابتلاء الناس بالجهالة والضلال في حياتهم وسيرهم إلى الكمال، حيث لو أنّ الأمة أرجعت الخلافة إلى أمير المؤمنين عليه السلام لما آلت أمور المسلمين إلى هذا الوضع، فكلُّ مصيبة جرت على الإسلام منذ الاعتداء على الزهراء عليها السلام.
- ٦- وقد أخذنا بنظر الاعتبار خلو الخطبة من أسلوب النداء في المستوى التركيبي، وكذلك خلوّها من الجناس في المستوى الصوتي.



المصادر والمراجع

● القرآن الكريم

١. آل قطيط، هشام. (١٤٢٥ق). *الكل يسأل وعلي يجيب*. لبنان: دارالمحجّة البيضاء.
٢. ابن أبي الحديد، عبد الحميد. (١٤٠٢ق). *شرح نهج البلاغة*. لبنان: دار الكتاب العربي.
٣. ابن جنّي، أبو الفتح عثمان بن جنّي. (١٤٠٩ق). *الخصائص*. (ط٤). مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
٤. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد. (١٣٩٣ق). *التحرير والتنوير*. تونس: الدار التونسية.

٥. ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي. (١٤٠٢ق). *لسان العرب*. (ط٢). لبنان: دار صادر.
٦. ابن هشام، عبد الله بن يوسف. (١٤١٦ق). *مغني السيب*. (ط٦). سوريا: دار الفكر.
٧. الأميني، عبد الحسين. (١٤١٥ق). *الغدير في الكتاب والسنة والأدب*. لبنان: الأعلمي.
٨. البحراني، كمال الدين ميثم. (١٤٠٦ق). *أصول البلاغة*. مصر: دار الشروق.
٩. حيدر، فريد عوض. (١٤٢٦ق). *علم الدلالة دراسة نظرية*. (ط٢). مصر: دار القاهرة.
١٠. خليفة، محمد. (١٤١٧ق). *أضواء على لغتنا السمحة*. الكويت: مجلة العربي.
١١. الزركشي، محمد بن بهادر. (١٤٠٢ق). *البرهان في علوم القرآن*. لبنان: دار التراث.
١٢. شرتح، عصام. (١٤٣١ق). *ظواهر أسلوبيّة في شعر أحمد بدوي*. سوريا: اتحاد كتاب العرب.
١٣. عباس، حسن. (١٤٢٦ق). *خصائص الحروف العربيّة ومعانيها*. سوريا: اتحاد كتاب العرب.
١٤. عبده، محمد. (١٤٢٧ق). *شرح نهج البلاغة*. إيران: ذوي القربى.
١٥. الفخر الرازي، محمد بن عمر. (١٤٠٦ق). *مفاتيح الغيب*. (ط٣). لبنان: إحياء التراث العربي.
١٦. فضل، صلاح. (١٤٢٦ق). *النظرية البنائية في النقد الأدبي*. لبنان: التراث العربي.
١٧. المبارك، مازن. (١٤٢٨ق). *الموجز في تاريخ البلاغة*. (ط٢). لبنان: دار الفكر المعاصر.
١٨. مختار، أحمد. (١٤٣٢هـ). *علم الدلالة*. (ط٧). مصر: عالم الكتب.

المواقع الإلكترونية

١٩. مركز دراسات الشيعة، ١٤٣٧ق: www.shiitecenter.ir
٢٠. في رحاب نهج البلاغة، ١٤٢٥ق: www.arabic.balaghah.net